نفسية الاديب من أدبه 1

المحاضرة الحادية عشرة

مقدمة:

يُعدّ الشاعر أبو نواس من أكثر شعراء العصر العباسي إثارة للجدل، لا بسبب خروجه عن بعض تقاليد القصيدة العمودية أو جرأته الفنية فحسب، بل لما يكشفه النقاد من أبعاد نفسية معقّدة في شعره. ومعلوم أنّ الشاعر اشتهر بالمجون والخمريات والتمرّد على كثيرٍ من القيم الفنية الموروثة في بناء القصيدة، مما يقتضي الغوص في أعماقه النفسية للكشف عن الدوافع الخفية التي شكّلت تجربته الشعرية.
ومن هنا تبرز أهمية قراءة الناقد محمد النويهي، الذي سعى جاهدا إلى إعادة تفسير شخصية أبي نواس من منظورٍ نفسي حديث، فرأى أنّ شعره ما هو إلا انعكاسٌ لصراعاتٍ داخلية معقّدة بين الرغبة والضمير، وبين الانتماء والاغتراب. وبذلك تحوّلت دراسة أبي نواس عند النويهي من حكمٍ أخلاقي إلى تحليلٍ إنساني عميق، يكشف عن أبعادٍ نفسية تسهم في فهم الشاعر وعصره معًا.

2.أهمية الدراسة النفسية في النقد العربي:

لقد شهد النقد العربي الحديث اهتمامًا واضحًا بالتحليل النفسي، فكُتبت دراسات نقدية متعددة في هذا المجال، سعت إلى الكشف عن الأبعاد الخفية للشخصيات الأدبية. وقد حظي الشاعر أبو نواس بعناية الدرس النفسي، إذ تناوله كلّ من عباس محمود العقاد ومحمد النويهي، وإن اختلفت النتائج في الظاهر تبعا لاختلاف الفرضيات السيكولوجية والمنطلقات المنهجية لدى كلّ منهما.يقول الناقد محمد النويهي معلّقا على ذلك بقوله : "فما زلتُ مطمئنّا إلى أن شخصية أبي نواس لا يمكن أن تُفهم إلا بتحليلها على المنهج النفسي الحديث الذي سلكته في الكتاب، مُرجِّحا أن خصائص النفس ومظاهر السلوك التي استنبطتها من أشعار الشاعر وأخباره هي في جوهرها كما سجّلتها هنا، وواثقًا من أن شعر أبي نواس لا يمكن أن يُفهم فهما صحيحا، ولا يمكن إذن أن يُتذوَّق تذوّقا فنيّا عميقا، إلا بإدراك تلك الخصائص والمظاهر، ومرتاحا إلى التفسير الذي قدّمته لشرحها والجمع بينها في وحدة حيوية تُعلِّل ما يبدو فيها من تناقضات." يفهم من قول محمد النويهي أن القراءة النفسية عنده لا تتوقف عند حدود رصد الظواهر السلوكية والادراكية في حياة الشاعر أو تتبّع موضوعات المجون والخمريات في شعره، بل تتجاوز ذلك إلى محاولة بناء صورة متكاملة لشخصيته، تقوم على فهم الصراع الداخلي الذي حكم تجربته الشعرية .

3. تحليل نفسية أبي نواس في ضوء المنهج النفسي

ويجدر بنا أن نُشير في البداية إلى أنّ محمد النويهي في نظريته النفسية يركّز في دراسته للشخصيات الشعرية على مفهومين أساسيين:

1. التنفيس عن العاطفة وتوصيلها إلى المتلقي،
2. الأدب كصورة نفسية تعكس شخصية الشاعر أو الأديب.

فبالنسبة للنويهي، يُعدّ التنفيس عن العاطفة ونقلها إلى الآخرين دافعين متلازمين، لا يمكن لأحدهما أن يحلّ محل الآخر، بل يشتركان في ضرورة ظهور الفن في أبهى صوره. فالفنان، في تصور النويهي، يسعى أولا إلى التعبير عن مشاعره ورغباته الداخلية، ثم يسعى إلى تقديم هذا التعبير في صياغة فنية تجعل

المتلقي يشارك الشاعر إحساسه ويشعر بموازاة عاطفته، مما يحقّق التواصل النفسي والجمالي مع الجمهور.

إنّ مفهوم التنفيس والتوصيل الذي أكّده ريتشاردز في كتابه *مبادئ في النقد الأدبي*، يقوم على فكرة أن أي عمل أدبي يبدعه أديب صادق وأصيل هو في جوهره محاولة للتنفيس عن همومه ورغباته وعواطفه الداخلية. غير أنّ الأديب لا يكتفي بهذا التعبير الذاتي، بل يسعى إلى **توصيل تجربته إلى الآخرين،** ليشاركهم إحساسه ويجعلهم يعيشون معه تجربته النفسية والعاطفية".

وفي حالة الشعر، يلجأ الشاعر إلى هذا النوع من التنفيس باعتباره وسيلة لإنقاذ نفسه من المكبوتات التي تحركها دوافع التجارب الإنسانية المختلفة، سواء كانت عاطفية أو اجتماعية أو فكرية. وتعد عملية التوصيل، في تصور ريتشاردز، ضربا من الموهبة أو قدرة استثنائية على" استرجاع الماضي وتحويله إلى تجربة فنية حية"، وهي القدرة التي تميز الشاعر الماهر عن غيره، إذ تجمع بين التعبير الداخلي والتأثير على المتلقي بطريقة تجعل العمل الأدبي يحيا كظاهرة جمالية ونفسية في آن واحد.

ومن الظواهر المهمة التي توقّف عندها محمد النويهي وأثارت اهتمامه في شعر أبو نواس ظاهرة حب الخمر، بوصفها عنصرا مركزيّا في تجربته الشعرية، وقد تجلّت في صور وأشكال متعددة في شعره ، حملت دلالات نفسية وفنية متباينة.

1- قدسية الخمر عند الشاعر:

2- لقد أحبّ أبو نواس الخمر حبًّا شديدًا، حتى غدا بالنسبة له كما يحب الإنسان جزءا من كيانه، رمزا للحياة والأمل الذي ينعش روحه ويخفف عن نفسه من ضغوطها. ولم يكن ينظر إلى الخمر بوصفها "مجرد مشروب، مهما كانت خصائصه، بل صارت عنده كائنًا ذا شخصية مستقلة، كفرد له قائمة بذاته. وقد تحقّق بذلك الالتحام التام بين ذات الشاعر وذات الخمر، اتصالٌ يشبه التوأم السيامي لا انفصال فيه ما دام حيًّا. فإذا أصاب العدم أحدهما، شعر الآخر بتأثيره فورًا، مما يعكس عمق الارتباط النفسي والتجربة الشعورية التي جسّدها في شعره". يقول في أحد ابياته:

عَاذِلِي في المدام غَيْرَ نَصِيحِ لا تَلُمْنِي على شقيقةِ رُوحِي

الشاعر أبو نواس في هذا البيت يصور لنا الخمر بمثابة **شقيقة روحه،** أي كجزء من كيانه الداخلي الذي يعبّر عن أعماق مشاعره وراحته النفسية. ويصفها كالوشيجة المتينة الباقية بين الولد والأم". كما يطلب الشاعر من العاذل الذي يمثله بصفته الناقد الاجتماعي أو الضمير، ألا يلومه على تعلقه بالمدام، فالشاعر يرى أن هذا التعلق ليس نزوة سطحية، بل حاجة نفسية عميقة للتنفيس عن الضغوط العاطفية والنفسية .أي أن الخمر بالنسبة له وسيلة لتفريغ مشاعره المكبوتة وتحقيق توازن نفسي، وليس مجرد ترف أو مجون.وهذه الصورة تعكس لنا عن ارتباط أبي نواس النفسي العميق بالخمر، بحيث تتحول إلى كائن ذي شخصية مستقلة تتشارك في أحاسيسه وتواسيه في محنه وهمومه.

وقوله في البحث عن تعويض حنان الام بالخمرة

قطر بل مربعي ولي بقرى ال ****كرخ مصيف وأمي العنب

ترضعني درها وتلحفني * بظلها والهجير يلتهب**

فقمت أحبو إلى الرضاع كما * تحامل الطفل مسه السغب**

هذه الأبيات تمثل استرجاعًا شعوريًا للشاعر لزمن طفولته وفي نفس الوقت تعكس الرغبة المكبوتة في العودة إلى الأمان والحماية الأمومية . لأن الام تشكل لكل انسان محور الرغبة والحنان والدفء ،وهذا يحيلنا إلى عقدة أوديب التي وضع بصمتها فرويد في العمل الأدبي،" ويرى أن "تطور الفرد يسير عبر سليلة من المراحل النمائية المتمايزة ؛وفي كل مرحلة منها يسود نمط عام من أنماط السلوك والنشاط ،كما يجابه الفرد في اثنائها مشكلات تكييفية جديدة...ويشير إلى أن جذور ماهو نفسي قائم في ماهو جسمي؛ والمفصل الذي يربط الاثنين يكمن في مفهوم الرغبة..." ،لهذا وظف الشاعر الخمرة في مكان الأم وتحوّلت إلى رمز للأمان النفسي والراحة العاطفية، الذي كانت تمنحه له أمه.

3- الشذوذ الجنسي:

يُنظر إلى الشذوذ الجنسي للشاعر على أنّه كان يعاني من ميل جنسي غير مألوف، ويعزوه بعض الدارسين إلى عقدة نفسية ترسخت في عقله الباطن منذ الصغر، مرتبطة بعلاقته بأمه."فقد تزوجت أمه بعد وفاة والدته، وفتحت بيتها لمن عُرفوا بالمجون والانحراف، ما ترك أثرًا نفسيًا عميقًا على الشاعر. ومن شدة تعلقه بأمه في صغره، وجد صعوبة كبيرة عند بلوغه سن الرشد في التحرر النفسي والاستقلال بشخصيته وإكمال نضجه الرجولي" نتيجة لذلك، ظل طول حياته يحن إلى الأم في تجربة شعورية معقدة، وتنعكس هذه العقدة على علاقاته مع النساء، إذ يغلب عليها شعورٌ بالتوتر والرفض، وهو ما يلحظه الباحثون في شخصيته وفي بعض مظاهر شعره وتجربته الحياتية.